حوارات في تدبير المبتدئين

(٢)

التعلُّم من المحبة

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

الحوار الثاني: تعلَّم من المحبة

سؤال: إذا بدأ أيٌّ منا بالمحبة، فكيف تصبح المحبة منهجاً للنمو؟

الجواب: المحبة ليست عواطف ومشاعر فقط، بل إرادة وقرار وعزم والتصاق، وهي تبدأ بحمل الصليب، ولكن يسبق حمل الصليب، جحدُ الذات، وجحدُ الذات، أو إنكار الذات ليس كراهية الإنسان لذاته، بل هو تحديداً:

أولاً: لا تصبح ذاتك هي مصدر حياتك؛ لأن كل متاعبنا تأتي من الوعي بأن الذات، أي ذاتي ووجودي هما سبب حياتي. والصحيح هو أن الذات يجب أن تُحب وأن يقبلها الإنسان كعطية من الله. مَن رأى ذاته، أي وجوده عطيةً وحياته هبةً من الله لا يسيطر عليه الغضب ولا تسود عليه الكبرياء.

ثانياً: عندما نقرر أن نحمل الصليب، فإننا نسير مع الرب، أي يصبح هو الطريق -كما سبق وذكرت- أي نعيش بالتعليم الرباني بحفظ وصاياه؛ لأن الوصايا ليست فرضاً علينا، بل هي مثل الخريطة أو البوصلة تحدد لك الاتجاه.

قاطعته، وطلبت شرحاً أكثر.

فقال: يعني حِب قريبك كنفسك، وهي الوصية الثانية. عندما نفشل في حفظ هذه الوصية أو نتعثر، فإننا في النهاية نجد أن الفشل يكشف لنا عن خبايا وأسرار في قلوبنا ترسبت فينا دون أن ندري، أو أحببناها عن قصد وعزم.

ثالثاً: وجحد الذات هو تقديم الذات ذبيحة؛ لذلك قال الرب: "يحمل صليبه"، وهو تقديم دائم، يعني كل يوم. ده أي إنسان عاوز يبقى "تلميذ" للرب يسوع نفسه يعيش بنفس حياة الرب.

سؤال: ماذا تعني بالضبط؟

قال: أقصد أن الرب يسوع وضع حياته كلها في يد الآب، ووحَّد إرادته بالآب: "أنا والآب واحد" بالجوهر وبالإرادة. ولكن بالنسبة لنا نحن تلاميذ الرب المؤمنين به، نحن واحد معه حسب المحبة التي لا تنقسم. يا أخي، فيه كلام بطَّال، بل ومُدمر، وهو فصل أقانيم الثالوث، موش بس الروح القدس عن المواهب، كما لو كان فيه حاجة اسمها المواهب هي زائدة أو خارجة لا تنتمي إلى الروح القدس، ولكن الله ليس مستويات من المحبة. المحبة علاقة شخصية، ومحبة الثالوث لنا هي محبة واحدة، يعني محبة الآب للابن هي ذات محبة الابن لنا، ولا تنزعج بالمرة؛ لأن المحبة شركة، والشركة دي موش زي الكهرباء، تدوس على الكُبس، النور ينور، أبداً، دي شركة شخصية ينال فيها كل إنسان على قدر نموه؛ لأن الثالوث مش حنفية ميه تتفتح، وكل اللي عاوز ياخذ. لأ دي شركة، وكل واحد على قد رغبته وعزمه في التنازل عن الذات.

سؤال: عاوز أرجع لأول الحوار، كيف تنظم محبتي للرب يسوع، حياتي؟

فقال: إذا كنت بتدوَّر على قانون، لازم يكون واضح عندك إن المحبة لا تعرف القوانين. إقرأ (١كو ١٣: ١-١١) وحاول تطلَّع لي قانون. يعني مثلاً: "المحبة لا تطلب ما لنفسها"، حُطَّها كده في قانون، تبقى مش محبة، بقت سلسلة، ولما نفقد الحرية، نفقد المحبة. لا محبة بلا حرية، لأن المحبة بذل، فإذا دخل الإرغام والقهر عليها، لم تصبح محبة. عاوز أقول إن ما ذكره رسول الرب في (١كو ١٣: ١-١١) عن المحبة هو أيقونة لفظية عن الرب يسوع نفسه، يعني أيقونة مرسومة بالكلام. أرجع أقول لك أربعة أركان التدبير الخاص بالمحبة:

الأول: المحبة اختيار حر.

الثاني: المحبة ليس لها شروط ولا أسباب.

الثالث: المحبة عطاء بلا قيود، وهو عطاء حر.

الرابع: المحبة شركة كاملة لا تعرف فواصل أو موانع.

يا أخي المحبة اختيار حر بلا ارغام.

سؤال: وماذا تقول عن التغصُّب؟

الجواب: سؤال جيد لأن التغصُّب هو اختبار المحبة لِمَا هو أفضل، وهو يُسمى تغصُّب لأن أحياناً نرى الأفضل، ولكن الضعف الذي فينا يريد أن يحولنا عن الأفضل. ولذلك، يُلزم الإنسان نفسه بما هو ضد مشاعره، يعني مثلاً: "أحبوا أعدائكم"، بالطبع لدينا عواطف تحاول أن تجعلنا ننتقم أو ننال "حقنا"، ولكن يجب أن نلاحظ أن من يعارض عدوه بكراهية لا يختلف عن العدو، يعني ذات العداوة اللي في قلب العدو هي ذات العداوة اللي في قلبي، يعني أنا مش أحسن منه.

زمان سمعت من الشيوخ حكمة و لم أفهمها إلا بعد سنوات: "حِب عدوك علشان تعرف تقاومه بالمحبة" وعبرت الحكمة، وجاءت سنوات كنت فيها مُطَارد ومحروم، وبدأت أكشف أسرار قلبي للرب يسوع، يعني لو أنا هَكره إللي جردوني من الكهنوت مهما كانت الأسباب، هبقى زيُّهم، ولكن أقاوم العداوة إزاي؟ حبست نفسي، وطلبت إرشاد الرب نفسه، وتذكَّرت الحكمة اللي سمعتها، وكانت النتيجة هي أنني بدأت أكتب عن الإيمان، وعن شخص الرب يسوع، وعن الموت والقيامة، وبدأت أتمنى أن يذوق الذين يطاردونني ما أذوقه أنا من حلاوة هذه المحبة التي أشرقت في قلبي، وأنا موش بأتكلم عن الكتب والمطبوعات، أبداً دي كلها جاءت مثل مخاض المحبة. دخل سيف العداوة في قلبي علشان يكشف لي خبايا قلبي، و لم أجد لي خلاصاً

إلا ربنا يسوع المسيح، وخدمة الأخوة كانت تعزية ولا تزال، ولكن التعزية الأبدية هو إنه انكشف لي عمق هاوية الكراهية، وبدأت المقاومة الايجابية بالكشف عن شـــخص الرب يسوع.

أنا موش عاوز أسيِّبك الأركان الأربعة؛ لأن المجتمع لا يعرف أن المحبة ليس لها شروط ولا حتى أسباب. الله يحبنا محبة بلا أسباب؛ لأن الله محبة. طيب، والانسان هو موش ممكن يكون محبة زي الله؟ حقاً، الإنسان مضروب بالموت، والموت هـــو اللـــي بيضع الشروط والأسباب.

سؤال: شروط زي إيه؟

الجواب: يعني في عبارة الرب يسوع المسيح نفسه: "إن احببتم الذين يحبونكم، فأي أجر أو ما هو الهدف الأعظم أو الغاية التي تريدونها، أليس العشارين والزناة يحبون من يحبهم". المحبة التي لها شروط هي محبة وضعها الموت فينا، وصارت محبة مشروطة بما يراه الإنسان فائدة لنفسه. وشروط المحبة تلاقيها عندك في محاضرات اللاهوت النظري عندكم.

الله لم يرسل الابن بشروط، بل جاء وأكمل التدبير وصار يدعونا إليه. التوبة تأتي بعد الإيمان والقبول، وهي جزء من الإيمان، وهي ليست شرطاً، هي تحول الإنسان إلى طريق الحياة. طيب، هتقول إزاي ده ينظَّم حياتي؟ أقول لك: كما أن للمحبة أربعة أركان، فالتدبير الخاص بالمحبة له أيضاً أربعة أركان:

الأول: كل شيء شراكة في المسيح ومع المسيح وبالمسيح.

ثانياً: رفض كل العادات والمثل التي تسود المجتمع، وطلب المثـــال الواضـــح والحقيقي، وهو يسوع نفسه.

ثالثاً: كل تفكير في احتياجات الإنسان لازم يكون مـــن بـــاب المحبـــة. دي

"لزومية المحبة" موش قانون، لازم تعرضها على الرب حتى لو كنت هتشرب كوباية ميَّه، موش لأنك مستني تصريح أو استعلان، أبدأ، ولكن لأنك بتطلب إنك موش هتكون وحدك، وحتى لو نسيت، بحكم العادة، فَدَه موش خطية ولا شر، هو تربية الوعي المحصن في محبة الذات.

كنت أعرف واحد من الشيوخ، حتى لو راح دورة الميه، كان يقول يا يسوع عن إذنك، أنا داخل الحمام، ومرة سمعه واحد من الأخوة، وظن إنه اتجنن، فقال له الشيخ وقد عرف فكره: لو تعرف محبة يسوع ليك متقدرش تعمل شيء من غيره.

رابعاً: التخلي التام عن كل ما تظن إنه لك من ملابس وكتب وأموال؛ لأنها ليست ملكاً لك وحدك، بل هي ملك لك وليسوع، الشريك في حياتك والواهب لك الحياة الأبدية.

وبعدين كل مرة هتلاقي صعوبة، أوعى تفكَّر إن المسيح سابك أو تخلَّى عنَّك، أبداً، هو معاك وفيك دائماً. هذا ليس شعور، ولا هو عاطفة في القلب، هو اقتناع وعزم من الإرادة بانك لست وحدك، ولا إن حياتك مِلك لك. هذا يأخذ زماناً، وعندما ننضج، يمنحنا الرب الحضور والحول الدائم فينا.

سؤال: لم تذكر لي شيئاً عن الصلاة.

فقال: ولماذا أذكر موضوع الصلاة برمته. مَن يحب، لا يحتاج إلى أن يذكر له أحد أو يتذكر مَن يحب. هو يحيا في حياة شركة، قال عنها الرسول القديس بولس: "شركاء المسيح" (عب ٢: ١٤)، ثم بعد ذلك "شركاء الروح القدس" (عب ٦: ٤)، وهي شركتنا في الابن. يا أخي، لنا وجود أبدي في المسيح. **أولاً:** لأنه أخذ الطبيعة الإنسانية، فصار بكراً بين أخوة كثيرين. **وثانياً:** لأنه هو الذي يدعونا إلى أن نشاركه حياته. التجسد ليس من أجل الآب أو الابن أو الروح القدس، بل كما يذكر قانون الإيمان: "هذا الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد ..."،

لذلك علينا أن نرى هذا الاتحاد بشكل صحيح وسليم.

الصلاة هي رؤية هذا الاتحاد، وهي سعي دائم لكي يتحقق فينا في الواقع الإنساني الذي نعيشه. هذا الاتحاد هو نمو، ولكن يبدأ بأننا "واحد مع الرب" بالروح وبالجسد أيضاً، ولذلك، عندما ننمو نحو هذا الهدف الأبدي، فنحن لا ننمو طالبين هدفاً خارجياً زائداً، بل ننمو داخلنا نحو الرأس، أي يسوع المسيح؛ لأن الرسول يقول "إننا قد مُتنا وحياتنا مستترة، أي داخلية غير منظورة ولا تقاس بما هو منظور، حياتنا مستترة مع المسيح في الله" (كولوسي ٣: ٢).

سؤال: إذن كيف أُصلِّي؟

فقال: الصلاة هي عودة الذي يُصلِّي إلى الأساس، إلى يسوع الذي فينا. وهنا، تلاوة المزامير أو الصلوات، هي كشفٌ عمَّا في الحياة، هي ليست مقيَّدة بالنصّ، بل تبدأ بالنص. أعرف أخاً كان في القداس، وسَمِعَ الكاهن يقول: "اهدنا الى ملكوتك"، فوجد نفسه في ملكوت الله، ورأى القوات السمائية حول الابن الوحيد وامتلأ بالفرح. الكلمات هي التي تقود الوعي إلى ما هو كائن فعلاً.

سؤال: لكن هل هذا ينطبق على صلوات المزامير؟

الجواب: نعم؛ لأن هذه الصلوات هي صراخ القلب المجروح، وطلب المعونة، والتسبيح، ورؤية عمل الله في الخليقة، واستغاثة للنجاة من مؤامرات الناس وقتال الشياطين لنا. كان لدينا تسليم أظن أنه لا زال معروفاً، وهو تلاوة مزمور ٩١ "الساكن في ستر العلي" قبل النوم، رغم عدم وجود هذا المزمور في صلاة النوم، أو صلاة نصف الليل، لكن الحرص على اختيار ما هو ضروري للنفس في يوم أو في لحظة معينة، هو أهم من التلاوة؛ لأن التلاوة هي أشبه بمن يحرك أوتار القيثارة قبل أن يعزف اللحن. والمزامير هي الحان القلوب الأسيرة.

سؤال: هل هذا الاختيار الضروري غير مقيَّد بالترتيب الكنسي؟

الجواب: يا أخي أنت تحتاج إلى استنارة. الترتيب الكنسي مدرسة كبيرة عاش فيها مَن هم أعظم مني ومنك، أنطونيوس الكبير، وأب الشركة باخوميوس، وهؤلاء لم يكونوا عبيداً، بل أبناء الله الأحرار. لذلك، إذا كنت في ضيقة وصرخت إلى الرب: "بصوتي إلى الرب صرخت"، أو "الرب نوري وخلاصي"، وكان وقت المساء، هل أنت خرجت على الترتيب الكنسي، أم لا تزال تحيا فيه؟ بل يقيني أنت لا تزال تحيا حسب الترتيب؛ لأن الترتيب له غاية، وهو الاتحاد بالرب يسوع. لذلك، الغاية هي هدف الترتيب الكنسي؛ لأننا لسنا تحت ناموس موسى، بل من الترتيب الكنسي تأخذ دائماً وبحرص المحبة، ما هو ضروري في لحظات معينة، ولعلك قرأت كيف كان النساك يرددون دائماً: "اللهم التفت إلى معونتي"، أي عبارة واحدة من المزمور، وليس المزمور كله. مَن عاش بالمحبة، تعلَّم حرية المحبة، ومَن عاش بالشريعة، وقع في قيود الشريعة.

سؤال: لم تخبرني عن كيفية الصلاة.

الجواب: لن أُخبرك؛ لأنك يجب أن تدخل أعماق قلبك وترى محبتك، هل هي حيَّة تحرك إرادتك، أم أنك إنسان تعيش بالفكر وحده، وهي تجربة كل المبتدئين الذين يفتشون عن أفكار تحرك عواطفهم الخامدة. **مَن يحيا حسب فكره يسقط سريعاً في برودة القلب،** ولكن من يحيا بالإرادة، عالماً أن حياته محفوظة ثابتة في صخر الدهور ربنا يسوع المسيح، سوف يجور بحر العالم بسلام.

سؤال: أرجو أن تقدِّم لي مشورة، بلاش قانون عن الصلاة.

فقال: كلمة قانون ليست عيباً، ولا هي جريمة؛ لأنها أصلاً تعني الدَّفة التي تحرك السفينة، وهي من القلم الذي يكتب ما هو صالح وضروري. ولكن، في التقوى الحقيقية، القانون هو تحديد اتجاه وليس شريعة، بمعنى إنك تحدد هدفاً، لا أن تمنع؛ لأن

الشر ممنوع بالوصايا الإلهية، ولكن القانون هو الذي يشرح لنا اتجاه الحياة. ما يمنعه القانون هو ما يعطِّل الحياة، ولا يوجد لدينا قانون صدر في مجمع مسكوني أو مكاني عن الصلاة، بل نَمَت الصلوات في داخل الجماعة المسيحية، وأصبحت القوى الحقيقية لحياة الشركة، وهي لذلك تحتوي على ما هو ضد الهرطقات، وعلى التسبيح بما هو إلهي، وعلى كل احتياجات الإنسان للاتحاد بالرب يسوع بقوة الروح القدس.

المشورة هي أن تختار ما يمكن أن تمارسه، وأن يكون الاختيار ليس حسب الاستحسان وحده لئلا تسقط في بئر إرضاء الذات، واعتبار إرضاء الذات هو الحياة، ولكن الاستحسان حسب الاحتياج، يعني أن يكون اختيارك بالإفراز أو التمييز. مثلاً: أن تختار المزامير أو صلوات التسبحة في أثناء العمل، أو في أي وقت من أوقات النهار. كان لي صديق جراح مشهور، وجاء عندي وقال إنه لا يصلِّي بالمرة، وإنه حزين جداً، فسألته: هل يوجد لديك ولو دقيقة واحدة لتقول فيها: "يا ربي يسوع المسيح ارحمني"؟ لا بُد وأنت حُر من أي عمل، ولو ٥ دقائق، لماذا لا تصلي صلاة يسوع؟ وجاء بعدها بأيام فرحاً، فقد وجد أن صلاة يسوع دخلت وملأت فراغ قلبه.

أرجو أن تلاحظ ما يلي، وأن تكتب هذا حتى لا تنساه:

أولاً: الصلاة هي نشاط المحب الذي يبحث عن المحبوب. هي إن شئت، هي سعي المحبة

ثانياً: الصلاة هي أن يكون لديك معرفة حقيقية بما تحتاجه.

هي ليست اندفاعاً غامضاً نحو الرب. وفي أثناء الصلاة، في الخدمة الإلهية، القداس الإلهي، يوجد فرق بين مَن يصلي لأن الثالوث يخدمنا، وبين مَن يخدم الثالوث. نحن ننال خدمة الثالوث لنا، وأعظم ما في هذه الخدمة، هو أن يعطي لنا الرب يسوع حياته، أي جسده ودمه.

سؤال: كيف أُصلِّي إذا كان المسيح في قلبي، بينما الكلمات تؤكد أنه خارج قلبي أيضاً؟

الجواب: نعم، في القلب، وخارج القلب؛ لأنه الإله المالئ السموات والأرض، هو فيَّ وفيك. كان أبونا ميخائيل إبراهيم يقول دائماً: "بيك البركة"؛ لأنه كان يطلب حضور الرب. يا أخي المحبوب، الوعي الإنساني مكون من ثلاث طبقات متلاحمة، أي متصلة:

+ الوعي بالذات، وهو شعور الإنسان بوجوده.

+ الوعي بما في القلب من تيارات وعواصف وصراعات.

+ الوعي بما نريد وما نحتاج.

هذه لا تنقسم، بل هي متحدة، ولكن يجب التمييز العقلي من أجل الوضوح. لذلك، نحن على وعي أن الرب فينا دائماً، ومن ثمَّ نصلي ليس كمن يطلب من هو غائب، بل من يطلب من هو حاضر، ولكنه غير محسوس، يعني ليس محدداً بحواس الجسد الخمسة، ولكنه حاضر وكائن بما يمكن أن نقول إنه الحاسة السادسة، ولكن ليس بالضبط. لدينا حس روحي هو أقرب الى "الحدس" بحضور الرب، وبسبب هذا الحضور، نكلم الرب كآخر؛ لأن تمايز الرب كآخر، ضروري جداً لنمو الإيمان به رباً ومخلصاً. المسيح يسوع حقاً فينا، ولكنه لا يذوب ولا يصبح مثل أعضاء الجسد، هو متمايز عنا تماماً، وهو ما يجعلنا نخاطبه، ليس كمن هو بعيد أو غريب أو غائب، بل كمن نعود إليه. وأقرب تشبيه لديَّ هو أننا عندما نقابل شخصاً ما نحبه، فإننا نراه كآخر، ونسرع إليه ونأخذه في الأحضان، وفي الحضن، لم يعد هذا الشخص غريباً أو بعيداً، بل ملتصقاً بنا. ولكن، يجب أن نكون على حذر؛ لأن الرب كائن فينا، فهو ليس غريباً أو مثل الصديق الغائب الذي قبَّلناه. المسيح فينا في السلام وفي الفرح وفي معرفة الآب، حتى لو كانت شحيحة، وفي فاعلية المحبة.

عندما تتحدث مع نفسك، هل انقسمت نفسك إلى قسمين؟ أبداً. النفس لا تنقسم رغم أننا عندما نصارع فكرةً أو شهوةً، يبدو لنا كما لو كنا اثـــنين، ولكـــن هكذا خلقنا ليكون في الطبع نفسه القدرة على الحوار الداخلي مع أنفسنا؛ لأن الـــرب يُستعلن في هذا الحوار. وعندما يقول القديس الرسول بولس: "المسيح فـــيكم رجـــاء المجد"، فهو لا يقصد رجاءً خارجياً، بل ما نرجوه ونراه إلى أن يكمل في يـــوم مجـــد الرب يسوع المسيح.

د. جورج حبيب بباوي